مذكرات فدائية شابة

قصة بقلم
خليل القيسي

كان ظلام الليل يميل الى الزرقة الداكنة . وظل الهواء مشحونا بغبار ثقيل ، وبروائح متعددة تفوح بقوة من كل مكان . ورغم شلل حاسة شمي ، استمر انفي يستاف رائحة الطحالب ، والاسماك ، والاملاح ، والرمل الندي ، تلك الرائحة التي تذكرني بهروبي الانتحاري في قارب صغير ظللت اجذف فيه بدافع من الارادة المحضة لاكثر من يومين ، مع يقين مطلق بانني اضرب في مجهول . عندما اخرجوني من القارب سقطت فوق الرمل ـ كنت املك قليلا من يقظتي المشلولة . فوق الرمل ، وبين النوم واليقظة ضخ ذهني جميع تلك الصور المرهبة . غرفتي الانفرادية الرطبة ، ووجوه رفاقي الفدائيين ، واجسادهم المشوهة من التعذيب ، ومنظر القوارب على الساحل ، وصفعات الموج اثناء تجذيفي ، والرشات البلورية التي كانت تغسلني ، والظلمات المخيفة التي كانت تسحب قاربي وتسلمني الى موت حقيقي . كنت ارى الاشياء من خلال الضباب .

هل ثمة ضباب حيث انا الآن ؟ ربما كان ضباب الهروب الانتحاري .

نهضت ، ووجدت جسدي المرهق مسندا الى اذرع غليظة ، وقدمي الحافيتين تفوصان بليونة في ارض رخوة ، واترنح مثل قارب ثمل . استهوتني الارض الرخوة ، وذكرتني بقدمي اللتين ظلتا تضربان تلك الارض الاسمنتية الباردة لاشهر طويلة . اردت ان اتحرك . لم أستطع . وبحثت عن يدي الميتتين فلم أجدهما . لم اسمع سوى اصوات مثل الزئير ، والصرخات ، كانت تجر رغم شلل ذاكرتي شريطا من الصور في ذهني ، وتذكرني باصوات المجنزرات ، ووقع الاحذية العسكرية ، والقهقهات . وظلت الاصوات ، والاذرع الممسكة بي تدفعني الى قلب تلك الكوابيس ، وتؤكد لي ان جهودي في الهروب من معتقلي باءت بالفشل . مدودني فوق مستطيل من الخشب الرطب . كان بصري ضعيفا الى درجة كنت ارى الاشياء مثل مكعبات صغيرة، وكبيرة . وانقطع الرجال عن الحركة ، وخيم صمت كثيف للحظات، وسمعت بعد الزئير من جديد . قال صوت رجالي غليظ :

ـ انه مرهق لحد الموت .

وقال آخر :

ـ يداه داميتان .

وصوت امرأة :

ـ لاحظوا انه مثل الاعمى . ربما ما زال يعاني من دوار البحر .

واختلطت الاصوات .

ـ اتركوه لينام .

ـ لكن البحر هائج .. وهذه الرطوبة .

ـ ربما بعد ان يرتاح قليلا يمكنه ان يفسر .

ـ بللوا فمه قليلا ..

قطروا قليلا من الماء في فمي . كنت في حاجة عميقة للنوم . بعد قليل تحلق الرجال حولي ، ورغم كثافة الضباب رأيت مجموعة من الفوانيس وهي تتأرجح في الايدي . وعلى الارض رأيت شبكات صيد ، وأسماكا كبيرة ما زالت تنبض بالحياة ، وعدد صيد ، اجفلتني عدد الصيد ، والاسماك ، والقوارب ، وأكدت لي بما لا يقبل الشك بانني ما زلت هناك ، في تلك القرية الفلسطينية الصغيرة على الساحل ، وفي غرفتي الانفرادية ، وفشلت في الهروب بعد ثلاث محاولات . اذن ، سيطلقون عليّ الرصاص هذه المرة . وأفقت على اصوات نسوية . أصوات لم اسمعها منذ سنة . واقتربت الفوانيس ، وغسلت منطقة كبيرة . اثارني منظر الفوانيس ، وعشرات العيون وهي تمتصني بحزن . وقالت امرأة :

ـ أهو أحمد ؟

ـ أي أحمد ؟

ـ الذي جرّ قاربه الموج قبل ايام .

واندفعت اخرى بسرعة ، ووضعت فانوسها لصق رأسي ، واخذت وجهي بين يديها ، وتأملتني بانشداه ، وقالت :

ـ هو ..

وقال رجل عجوز :

ـ اتركوه .. من يدري اين انتهى احمد ..

ـ يشبهه .. اليس كذلك ؟

ـ اتركوا الرجل يرتاح ..

ـ انه هو ...

ـ يا امرأة ... اتركي الرجل وارفعي الفانوس . سبحان الخالق .

وقالت امرأة اخرى :

ـ لكنه لا يرتدي ملابس الصيادين .

افقت تماما . وعندما القيت نظرة سريعة على ملابسي ، وجدت بدلة قتالي ممزقة ، ولا شكل لها . اخذوني الى مكان دافيء ورحت

في نوم عميق . وعندما استيقظت ، استفسرت بصوت لا جرس لـه عن المكان الذي انا فيه . وقال رجل طويل :

ـ هذه مدينة (ط) .

وقفت على قدميّ ، وبصعـوبة كبيرة اقتربت من الرجال ، والنساء ، وأردت ان اقول لهم بأنني ابن فلان ، وقريب فـلان ، غير انني تذكرت بسرعة بأنني لم أعش في مدينة (ط) الا سنـوات صباي ، وجزءا من مراهقتي ، ولم اتردد اليهـا سوى لزيـارة صديقتي .

وسالتني امراة :

ـ من اين جئت ؟ ما الذي حدث لك ؟

وآلمني كثيرا ألا اعرف الناس ، والمدينة . وقلت :

ـ هل تعرفون فتاة باسم (ح) .. انها مدرّسة .

وأعطيتهم ما استطعت من تفاصيل وجهها ، وشكلها ، ومكـان اقامتها . وغمغمت النسوة فيما بينهن ، وتبادل الرجال النظرات . وقالت امراة :

ـ أهي فلسطينية ؟

ـ نعم .

ـ أعرفها .. ابنتي كانت طالبة في مدرستها ..

عبثا بحثت عنها . وفي المدرسة سلمتني صديقة لها دفتـرا صغيرا قالت انها تركته لي . وبعد اسبوع عدت الى الجبهة .

المذكرات

٤ ايلول ٦٨ :

همس لي صديق لك رجع مؤخرا من خندقك البعيد قائلا ، انك سترجع ، ربما ليوم واحد فقط . وكان رجوعك آخر ما فكرت فيـه . عندما تعرفت عليك ، عرفت ان الموت جزء حيوي من حياتك . اما ولنا قضية ، فلن ترجع ابدا . وحتى اذا رجع الجميع فانت الاخير حتما. في رسالتك الاخيرة ، قلت ، في القتال تضيع الايام . اجل ، لـذا لم اسال عن اليوم ، او الشهر .. انتظرت . لم تات . وأتت اخبار صغيرة ولكن مؤلمة . للحرب لغة مسرفة التشاؤم ، والتفاؤل مثـل اسرافها المضحك في الاقتصاد والارواح . مع انك أعلمتني كيف انتصر على قلقي ، لكن قلقة بقيت .

١٠ تشرين الاول ٦٨ :

عندما هاجرنا ، وتشتتنا ، اضطررنا ان نسكن كمهاجرين فـي احياء معينة عرفت بمرور الزمن باسمنا ، وكان اليهود بسادومازوكية معينة ارادونا ان نمر بتجارب قاسية في ذاك الحي شبه المظـلم ، والازقة التي يسيل الطـين فيها طوال الشتاء عرفتك شجـاعا ، ومغامرا ..

(كنت في العاشرة عندما هجرنا . اذكر الازقة المظلمة ، واقدامنا الحافية والطين . الهي ، كنا اشكالا لا روح فيها) .

عندما ينسلخ الانسان من ارضه بقوة ، يكـون ناضجا للبؤس والموت . ولعدم نضج رؤانا في الاعوام الاولى ، وكبديل لكـل ازماتنا عشقنا المغامرة والهجرة . كنت تخلق المغامرات ، بل خلقت لهـا . حقا متى خفت الموت ؟ وهل يخاف الموت من لا وطن له ؟

(عندما افكر في الماضي البعيد ، اجد ان شراستي كانت الطريقة الوحيدة كي تكون الحياة بالنسبة لي محتملة . كانت ذكريات والدي وهو يتكور فوق فراشه ، ويحول غرفتنا الصغيرة الى بالونـة مـن الدخان تجرحني من الداخل . وكنت اترجم كل آلامه ، وتاوهـات والدتي ، وذكرياتها الجميلة الى لغة شرسة ، وسلوك عـدائي . ان ذكريات والدي ، ودموع والدتي غرست فيّ عشق الموت ، والمغامرة ، والصبر ايضا) .

ملاحظة : الجمل التي بين قوسين تعود للراوي .

انا لم اغامر . ورغم الضياع ، والتشتت ، بقيت قوانين البداوة سارية عليّ كانثى . امس قرأت كلمة جميلة للقديس اوغسطيـن . يقول : ان مجرد وجود الشجاعة دليل وحيد على وجود الشر . هل ثمة شر اكثر من هذا الذي يغلفنا كمهاجرين ؟

ايها العزيز ، كنت باستمرار تردد ـ اننا جيل ممزق يجمـع اشتاته . وكلمات (غوتيه) التي ملأت بها سمعي ليل نهار ـ لا يستحق الحياة والحرية الا من يغزوهما ـ ترن في جسدي .

(ونحن لا نملك الاثنين . هل ثمة قيمة للحياة ؟)

١ كانون الاول ٦٨ :

اكتب هذه الكلمات مباشرة بعد ان تركتني امرأة في عقدهـا الخامس جاءت لتشكو اليّ سوء تصرف ابنتها .. تعرف انني وحيدة، ونادرا ما تاتي طالبة لزيارتي . روت لي المرأة بلهجتها القروية الجميلة قصة شيقة عنك . قالت ، ذات مرة هربت من البيت بعد ان سممت كلب رجل غني وخبأت نفسك داخل صهريج سيارة كانت تجلب المـاء الغريني لسقي مزارع بعض الاغنياء في اطراف البلدة ... افهم ان يهرب الواحد الى مكان بعيد ، اما ان يدخل فوهة صهريج ويبقـى داخل اسطوانة مظلمة لساعات طـويلة ... ما زلت لا اعرف كيف خرجت . ولم ترو لي المرأة كيف خرجت . هل يمكن عندما فتحـوا صنبور الماء ليملأوا الصهريج طفت مثل فلينة كبيرة ؟

(الهي ، اين ذكرياتي ؟ يا لطفولتي التي كنت فيها مثل الزنبور الذي يطن دونما توقف) .

١٢ كانون الاول ٦٨ :

تذكرت جملتك قبل سفرك بيوم واحد حين كنا خارج المدينـة على الساحل . قلت لي ان الحرية تكره الجبن .. ولست ادري لماذا قلت انك ستموت في البحر .. اتذكر الساعات التي قضيتهـا مع الصيادين ، والسمكة التي قذفتها في وجهي . يا لعشقك اللامحـدود للبحر ، ومنظر الصيادين وهم يرتقون الشبكات في القوارب . لكـن البحر الذي عشقته تحول الى الصحراء التي لا اعرف في اية بقعـة منها انت الآن . لماذا لم تكتب ولو كلمة صغيرة ... وكم من مـرة استفسرت عنك وتلقيت صمتا اخرس .. واذا كنت ميتا ، اردد لك مع ايلوار ـ لك الشمس كلها على الارض ـ

٢٥ كانون الاول ٦٨ :

مرة اخرى سمعت انك رجعت الى المدينـة دون ان تمر عليّ . ربما كنت اعيش في وهم . لكن الذين شاهدوك اثق بهم . ايها الطيف، باية سرعة جئت ، وذهبت ...

(لم ارجع مطلقا .. يا لمنطق الاحلام)

بعد النكسة المسرطنة رددنا مثل اغنية عتيقة جملة لكاتب نسيت اسمه (ان ادهش المدهشات ألا يندهش الانسان) لـذا اندهشت .. اندهشت حتى جفت دهشتي ... متى تركت المدينة ؟

١ كانون الثاني ٦٩ :

اشتقت لمجرد ان اسمع صوتك .. ذهبت حيث جلسنا تحـت اشجار النخيل في الواحة ظاهر المدينة . جلست في نفس المكان الذي استلقيت فيه ، وتذكرت عنقود البلح الذي القيته من فوق الشجرة . ما زلت لا اسيغ طعم البلح ، لا لانه يذكرني بلقائنا الاخير ، لا اسيغ طعمه النشافي وهو يمص كل اللعاب داخل الفم .

رجعت . وفي الليل تخيلت مداخل المدينة ، والطرقـات ، ثم نمت .

٧ كانون الثاني ٦٩ :

الاخبار الاخيرة مسرفة في التشاؤم . اجل ، تبدو الاشياء صعبة للغاية في البداية مثل الكتابة بالدم على سطح الماء .

١٠ كانون الثاني ٦٩ :

انني اتماثل للشفاء بسرعة .. الم ظهر اقل بكثير من ذي قبل ،

ولا اظنني احتاج الى عملية .

١١ كانون الثاني ٦٩ :

اخبرني من يستطيع السيطرة على الاحلام . هذه الليلة افقت عشرات المرات بعد أن غزتني سلسلة من الكوابيس . وجدتك مستلقيا على الرمل ، وطبيب نحيف صارم الوجه ، وثلاثة من رفاقك يقصون فخذك بمنشار طويل . اندفعت وبركت قبالة الرجل الصارم الوجه ، واستفسرت بصوت مخنوق ـ لمـــاذا ؟ اخبرني ان فخذك اصيبـــت بالفنغرينا . رفضت ، واحتججت ـ لكنهم استمروا في القص ببرود. وكنت جامدا بصمت من لا خيار له . وغرقت في بكاء حار عندمـــا لم تعر اي اهتمام لي ، ولفخذك . سرعان ما تصورتك بلا ســـاق ، صرخت بكل ما لدي من قوة ، ورأيت رفيقا لك يبحث في جيوبك . واخرج مجموعة من الاوراق . عرفت انها مذكراتك . حدقت فـــي فخذك . كانت بلون الخـــوخ الفج .. يئست وطلبت من رفيقك ان يسلمني المذكرات باعتباري الوريثة الشرعية الوحيدة لممتلكاتك ... لم اعرف فيما اذا كان الوقت ليلا ، او نهارا .. كان ثمة ضوء بلون الرمل . ورأيت عددا من الغربان تحوم حول المنطقة . خفت زعيقها . وببرود سلمني الطبيب فخذك بعد ان بترها كليا . كانت رائحتها كتلك التي شممناها ونحن في طريقنا الى الواحة حيث ذهبنا لمشاهـــــدة رقصات الفجر . أتذكر رائحة الفرس الميتة والكلاب تنهش فيهـا ؟ وطاردتنا الغربان . هجم غراب على فخـــذك ، واعقبه آخر ، ودارت معركة مضحكة بيننا . كانت رائحة الفنغرينا تلهب الطيور . وضـاعت مذكراتك . وفي لحظات وجدتك فـــوق نقالة وغبت في الصحراء . كانت ليلة مرهقة . في منتصف الليل افقت ودفنت نفسي في كتـاب لا اتذكر عنوانه . تخيلت الصحـــراء ، ووجهك الجامد ، وفخذك ، والغربان ، ثم نمت . من اين للاوعيي كل تلك المذكرات عن الصحراء ؟ ربما انها صور الطفولة .. يوم قطعنا الصحراء وسياط الغزع تلهب ظهورنا . مرة اخرى وجدتني في الصحراء وفي زوبعة رملية . رأيت بطانيات ، وملابس تطير مثل بالونات في الهواء . وكانت حبـــات الرمل تنفرس في وجهي مثل دبابيس محميـــة . ورأيتك تتدحرج ، وتحاول ان تصل اليّ . وكنت اراك في اشكـال متعددة . تارة تشبه والدي ، واخرى تشبه نفسك ، ثم فجاة لا شكـــل لك . وكنت ارى نفسي صغيرة ابكي ، ثم فتية ، وصوت والدتي يناديني . آه ، هي مجموعة الظروف القاسية التي لوثتنا من الداخل ... هل استطعـت ان ترى نفسك صغيرا في الحلم ؟

الاصوات سواء في الحلم ، او في اليقظة نداءات خفيـــة . عندما فقدتني في مدينة (ب) كنا أسفل ذاك المنحدر . لا اعرف بماذا انشغلت . ربما باشجار الكرز العارية ، وبالرساميين .. ما زلت احب مدينة (ب) وصخبها ، واصوات الباعة ، وبيوتها القديمة .. كم مرة ناديتك وانت تبحث عني .. ان الواحد يحتاج الى مران طويل ليكـون صوته بقوة صوت الباعة ...

لا اتذكر التاريخ :

عندما زرتك في الجبهة ، اول شيء قمت به ، وبسلوك طفولي مسست فخذك لاتاكد من انها في مكانها .. ما معنى هذه المخـــاوف السخيفة التي لا اساس لها .. كل شيء في المنطقة كان يشبـــــه الكابوس الذي رأيته .. دهشت كثيرا ، وتاملتني بتعجب . وضحكت بدوري لا شعوريا . وسرت معي بخطواتك الطويلة . وفي ذاك المرتفـع الرملي سرنا نتكلم ، وننظر الى موجات من الـــدخان بلون الحرير الازرق . كلانا كان يدرك انطلاقا من تجاربه ، وقضيته ان لذة الرؤيـا تفسد معنى الرؤيا .. منذ سنة تعلمنا ان نحب البعض عـــن بعد . لم تنل الصحراء من داخلك المطرب . ورأيت ثلة من رفاقك يسيـرون بخطوات صغيرة ، ويركلون تلال الرمل . قلت :

ـ انهم النافخون في الابواق على ابواب المستقبل .

وقلت انك تحب سان جون بيرس . وتكلمت معي طويلا عـــن القصور الـــذاتي المزمن في جيلنا العربي ، وعـن الماضي وضرورة تخطيه . واستمعت اليك بشوق .. الهي ، لكـم بروعة تفتحتوتوعبت في الخنادق وفي القتال . هناك فقط عرفت مبلغ صدق كلمـــاتك عندما قلت ـ الذي لا يؤمن برسالته يتحول الى جثة . وخشيـــت لحد الجنون ان ابقى في المدينة بعد ان شفيت من مرضي . ففـــي الوقت الذي كنت اخشى الموت في قلب الامان ، كنت انت على حافة الموسى تحب الحياة من جديد . وعندما تركتك ، تعلمت منك ، ومن الصحراء ، والخنادق لا تناهي هذا العالم .

لم ارجع الى المدينة .. اذا حدث ذات يوم ورجعت الى المدينة يمكنك الحصول على مذكراتي من صديقة تعمل معي في المدرســـة . انني الآن في مكان ما من الدائرة الملتهبة .. ان اقـول لك اين انا ، واعتقد غير مهم ان تعرف . ليعش كل منا عالمه .. وجميل ان يعيش الانسان في القتال بمجرد التخمين ..

يوم قرانا كلانا ديوان ديلان توماس ، احببنا هذيـــن البيتيـن كثيـــرا :

الرجال الموتى العراة سيتوحدون
مع الانسان في الريح والقمر الغربي

كركوك (العراق) **جليل القيسي**

من منشورات دار الآداب

شخصيات من أدب المقاومة

تأليف سامي خشبة

« ليست هذه محاولة في النقد الادبي التطبيقي ، وليست محاولة لدراسة شخصيات لابطال تاريخيين او مخلوقين على حساب الاعمال الادبية انها محاولة لاكتشاف ما يمكن ان يصنعه الادب بعقلية الشعب الذي يكتب عنه الادب ويكتب له . ان عقلية مصر وروحهـا في مواجهة كل محاولات غزوهـا وطمس معالمها القومية والانسانية هي ما يهمني في هذه الدراسات .. ومع هذا فان للبطولة ايضـا نصيبا من اهتمام هذه الدراسات ، ولكنهـا بطولة العقل ـ مهزوما او منتصرا ـ في مواجهة محاولات تجميده في اطار ثقافات الغزاة، او في توابيت ثقافته المحلية التي اجبرت على التوقف عن مواكبـة الحياة المتطورة .. ومن هنا ، فان كل ادب ننتجه يهدف الى تاكيد قيم الحرية العقلية والاجتماعية والسياسية والى اعادة الكشف عن حقيقتنا القومية من زاويتها الانسانية هو ادب للمقاومة »

من مقدمـة المؤلف

٢٥٠ ق.ل.

صدر حديثا